وكم من حكة بقضى أراها وسوء الظن برتدُّ في حماها

وامثال ذلك كثيرة في اقوال هذين الشاعرين وفي اقوال اكثر الشعراء المجيدين فنكتفي بما ذكرنا مثالاً لما لم يُذكر

شرائع الحرب واسباب السلم

ان الناس لا يزالون الى يومنا في زحام وصدام تتقاذفهم امواج الاهواء وتوغر صدورهم سود الضغائن فيحتكمون الى السيف وهو القاضي العدل ولو كان من اشد القضاة عتوًّا . والعاقل اذا تأمل في تمدُّن هذا العصر واتساع نطاق التجارة وانتشار لواء الحضارة وكثرة النعماء والبلاء توقَّع ان يرى فيه دواء لداء المطامع ولجامًا لجماح الاهواء وان يجد الناس قد انزلوا السيف عن منصَّة القضاء وبرَّأوا العقل مكانه وتقاضوا اليه مرتين وانتدبوا الى حكمه صاغرين . والحال انه لا يرى لاوَّل وهلةٍ ولا يسمع الاَّ مدافع تدوي وسبوفًا تلمع واساطيل تُبنى وجيوشًا تُجمَع كأنَّ البشر راجعون الى البداوة المحضة اذ يتجنَّد كل رجالهم ويشغلهم الرحفُ والكرُّ عن الحلب والصر . على ان المتدبر يعلم ان وراء هذه الجيوش المعبأة والاساطيل المدرَّعة والاسلحة المحددة قد نصبت الرحمة عرشها وقام العقل خطيبًا والعدل نقيبًا وصار غرض الدول الاوَّل تلافي الحروب ونزع اسبابها او تقصير مدتها وتخفيف اوصابها كما سيأتي مفصَّلاً . وكان الشروع في ذلك اثناء حرب القرم التي انتشبت بين الدولة العلية وحليفتاها وبين دولة الروس

تأججت نيران هذه الحرب سنة ١٨٥٤ وانجلت عمَّا لا نظير له في الحروب السالفة من احترام حقوق الرعايا والرفق بالاسرى[1] والتسريح التجَّار ولو كانوا من المحاربين . فلما عقدت شروط الصلح في مدينة باريز صُرِّح فيها بوجوب الاحترام لحقوق الدول غير المشتبكة في الحرب وحقوق كل الرعايا غير المجندين ولو كانوا في دار الحرب . وامضى هذه المعاهدة نوَّاب انكلترا وبروسيا وتركيا وروسيا وسردينيا وفرنسا والنمسا وامضاها غيرهم من نواب الدول الكبيرة والصغيرة بعد ذلك

ثم التأم نوَّاب الدول الاوربية في مدينة جنوا لكي يسنوا نظامًا لمنع الدول المتحاربة عن استعمال الوسائل البربرية التي تعذب الناس وتضرُّ بهم اكثر مما تستدعيه مصلحة الحرب .

(١) وقد شاهدنا بعض الثوريين الذين كانوا حينئذٍ من جنود الدولة العلية وقعوا في أسر الروس فانهم يثنون على الروسيين ثناء جميلاً لانهم اطعموهم واسقوهم واعتنوا بهم مدة اقامتهم في بلادهم ثم ردوهم الى وطنهم آمنين

ولانجاذ الوسائل اللازمة للرفق بالمرضى والجرحى ومداواتهم . فسُنَّ هذا النظام وأُمضي في مدينة جنوا في الثاني والعشرين من شهر آب (اوغسطس) سنة ١٨٦٤ بامضاء مفوّضي اسبانيا وانكلترا وايطاليا وبادن وبرتوغال وبروسيا وبلجكا والدانيمارك وسويسرا وفرنسا ونذرلند وهس وورتمبرج وضمنوا فيو حماية المستشفيات الحربية وكل الذين يتعاطون الخدمة الطبية والدينية وأنشئ لم علم عليو صليب احمر يُعرَفون بو فيوقون من كل عدوان

ثم أجمع رأي اسوج ونروج وانكلترا وايطاليا وباڤاريا وبرتوغال وبروسيا وبلجكا وتركيا ودانيمرك وروسيا وسويسرا والمجر وفرنسا ونذرلند والنمسا وورتمبرج والولايات الجرمانية الشمالية والبونان على عقد مؤتمر في بطرسبرج لربط الحروب بسنن لا تعداها فاتفق رأي نوّاب هذه الدول على انهُ لا يجوز لدولة منها وقت الحرب الاّ ان تُضعف قوة عدوّها الحربية بمنع العدد الاكبر من جنودهِ عن حمل السلاح . وهذا ينهاها عن استعمال كل الاسلحة التي تزيد آلام الجنود الذين لم يعودوا قادرين على حمل السلاح او تجعل موتهم محتومًا

وسنة ١٨٧٢ التأم مجمع الاتحاد العام في مدينة باريز لكي يعمم منافع معاهدة جنوا ومعاهدة بطرسبرج في ما يتعلق بالاسرى وارسل رئيس لجنتهِ العاملة منشورًا الى كل الدول يدعوهنَّ فيو لارسلن نوّابًا الى مؤتمر عام يُعقد في باريز في شهر ايار (مايو) سنة ١٨٧٤ وقال في هذا المنشور "ان اختلاف القوانين المرعيَّة في معاملة الاسرى وعدم وجود شيء منها في بعض البلدان دعَيا الى انشاء جمعية مؤلفة من كل الممالك لحمل دول الارض على سن قانون عام يجريُ عليو في هذه المسألة الخطيرة" وتاريخ هذا المنشور ٢٨ آذار (مارس) سنة ١٨٧٤ . وفي السادس من نيسان (ابريل) من تلك السنة ارسل البرنس كورتشاكوف وزير روسيا لائحة وخطابًا الى كل الدول يدعوهنَّ فيو الى الاتفاق على قانون عام يحدد شرائع الحروب واساليبها وسائر متعلقاتها وقال في ختام هذا الخطاب الكلام الآتي

"ان دواعي الشفقة والانسانية اللتين يشترك فيهما جميع الناس قد دعت الى هذا الامر الخطير لانهُ بمقدار ما يزيد ارتباط الامم بعضها ببعض وتزيد عساكرها انتظامًا تزيد الحاجة الى تحديد القوانين والاساليب التي يجوز اتباعها ايام انتشاب الحروب لتحديد نتائجها وتقليل ويلاتها . وبناء على ذلك يجب ان يقع الاجماع على قوانين ترتبط بها كل الدول وهذا في اعتقادنا من مصلحة كل دولة ومن واجباتها . وما نعرضهُ الآن على مجالس الدول المختلفة يكون الجسر فيو تمهيدًا للقرار الاخير الذي يقرُّ عليو مفوّضو الدول" . ثم ارتأى ان تكون مدينة بركسل عاصمة البلجيك مركزًا لهذا المؤتمر وان يكون الخامس والعشرون من شهر تموز (يوليو) يوم شروعهِ في الاجتماع

فاجتمع المؤتمر المشار اليه في مدينة بركسل في شهر تموز وارسلت اليه الدول مندوبيها الا دولة انكلترا فانها اقتصرت على ارسال رسول لم تفوض اليه شيئاً الا إعلامها بما يجري من المباحث ولم ترسل هذا الرسول الا بعد ان ارسل اللورد درفي يطلب من دولة روسيا ومن الدول المتفقات معها ان يعدنه وعداً صريحاً ثابتاً بانهن يأمرن نوابهن ان يحصروا مباحثهم في القضايا التي تقضيها لائحة دولة روسيا ولا يتعرضوا لشيء من اعمال الجيوش البحرية بوجه من الوجوه

وهنا محل الاستغراب من اقدام روسيا على سن شرائع الحرب واحجام انكلترا عن الاشتراك في ذلك ولا يُعلم الى اي شيء ينسب ذلك الاقدام وهذا الاحجام أإلى شدة الروس وقسوة الانكليز ام الى اغراض في النفوس تنشأ عنها الظواهر مهما تلوّنت . فان روسيا دولة فاتحة ومن مصلحتها اصطناع اسرى اعدائها والاثنان على جودها اذا أُسروا وانكلترا واثقة بالمرصاد ومصالح الدولتين متضاربة . ومهما يكن الباعث على ذلك فان روسيا تُدِلّ على رشحها في تخفيف ويلات الحرب وانكلترا تدح ايضاً على نهجها هذا المنهج فعلاً ولو لم تظاهر به وكل حروبها الحديثة شاهدة على انها تجتنب الحرب ما امكن وترفق باعدائها اشد الرفق وتسهّل الوسائط الممكنة لحجب الدماء

اما المؤتمر المذكور فنظر في لائحة روسيا نظراً دقيقاً وبحث في كل بند من بنودها بحثاً طويلاً ثم فحصها وختم على صحتها . ومما جاء فيها " ان الاسرى هم اعداء عُزّل (اي لا سلاح معهم) وهم في قبضة دولة العدو لا في قبضة افراد ولا في قبضة الكتائب التي اسرتهم ويجب ان يعاملوا بالرفق ولا ينزع منهم الاسلحة ولا يجوز الحجر عليهم الا اذا مسّت الحاجة . ويمكن استخدامهم في الاعمال العامة بشرط ان لا يكون العمل شاقاً ولا محطاً بشأنهم . واذا كان لهم مرتّب وجب ان ينفق عليهم في اصلاح امورهم او يحفظ لهم بعطى لهم حينما يطلقون . وتلي الدولة ان تعتني بالاسرى الذين تأسرهم في مأكلهم ومشربهم وملبسهم كما تعتني بجنودها " . ومنها ايضاً " انه اذا دخل العدو بلاداً فلا حق له باكراه اهاليها على حمل السلاح ضد دولتهم ولا على حلف يمين الطاعة له . ويجب عليه ان يحقن دماءهم ويحترم دياناتهم ولا يتعرض لعرضهم ولا لمالهم " ونص على ذلك من البنود التي حصرت غاية الحرب بجعل العدو يترك السلاح صحيحاً او جريحاً او قتيلاً

ولكن انكلترا لم توافق على هذه اللائحة ولا على امتناف عقد المؤتمر . وهب انها وافقت عليها عند امضائها كل دولة من دول اوربا فلا تخلت بها ويلات الحروب كثيراً على ما يذهب اليه بعض رجال السياسة لانه قد اشتدت المناظرة بين هذه الدول بعد حرب فرنسا وجرمانيا فقلدن

السلاح لاكثر رجحانٌ حتى اذا حاربت دولةٌ دولةً اخرى صارت اكثر بلدان الدولتين دارَ حربٍ وجرت فيها الحكومة العرفية التي اقلُّ ما ينال فيها انها تأخذ البريءَ بجريرة الاثيم، والذي يظهر لنا هو ان تلك اللائحة تفي ببعض الغاية المطلوبة وان لم تفِ بها كلها لانها تحدد مضار الحروب وتجعلها واسطة ضرورية لغايات حميدة لا تحصَّل الاَّ بها بدلاً من جعلها سبيلاً لسد المطامع واظهار الضغائن

هذا وجميع الذين كتبوا في هذا الموضوع من ايام ليڤي الروماني في عصر المسيح الى غروتيوس الفلسكي في اواسط القرن الخامس عشر قد اشاروا الى وجود قوتين عظيمتين تتعلان معاً في ساحة الحرب الاولى دواعي الحرب نفسها والثانية دواعي الشهامة والنبالة . انظر الى قضة السلطان صلاح الدين مع ملك القدس والبرنس ريتود (ارناط) المذكورة في الجزء الماضي من المنتطف ترَ هاتين القوتين فاعلتين معاً . وامثال هذه القصة كثيرة في اعمال السلطان صلاح الدين وغيره من القواد العظام حتى في اعمال جنكيزخان وتيمورلنك المشهورين بالبغي وسفك الدماء . ذكر ليڤي المؤرخ انه لما كان كاميلس القائد الروماني محاصراً مدينة فالبشي خرج اليه معلم مدرسة وسلمه اولاد الرؤساء فنظر كاميلس اليهم شزرًا وقال له نعم انه ليس بين الرومان ومدينة فالبشي عهود تربطهم معاً ولكنهم مرتبطون بربط طبيعية وللحرب حقوق وللسلم أخرى وهذه الحقوق توجب علينا ان نسير بالعدل والانصاف دائمًا » . فاذا رُبيت دواعي الشهامة هذه قويت وتهذبت بها المطامع فتحوَّلت من الشر الى الخير وهذه هي غاية الساعين في نشر العمران وتعميم الآداب

ومن يتتبع تاريخ الحروب ومظاهر العمران يرى ان العمران قد نوَّع الحروب وتحكَّم في مصادرها وموارِدها وانه يدعو الى ابطالها ونشر السلم في الدنيا اذا وجد الى ذلك سبيلاً . وهي ساعٍ نحو هذه الغاية على اساليب شتَّى وطرق مختلفة منها عقد الجمعيات وسن الشرائع المشار اليها سابقاً . نعم ان هذه الشرائع ناقصة من كل وجه وغير مرعيَّة تمامًا ولا سيَّما حين تقاوم المطامع ولكنها ضمانة على ان البشر سيسنُّون شرائع اوثق منها وسيصيرون اقدر على القيام بها وتنفيذ قيودهم على ذلك مع توالي الزمان . ومهما تكن هذه الشرائع فقد وضعت حدًّا لاكثر الاعمال الحربيَّة وفرقت بين الجندي وغيره حتى لا يؤخذ الواحد بجريرة الآخر وصيَّرت الحرب صناعة خاصَّة بالجنود كما قال الامبراطور نابليون احيانًا دخل فرنسا . فان كانت الدول لا تحترم بعضها بعضًا الآن بالاحرى ولا تعدُّهم ضيوفًا عزلوا عليها فهي بلغت بوجوب ذلك وتعاولت عليه . ومن فوائد هذه الشرائع ايضًا انها الغت النهب والسلب ولم تحلَّهما الاَّ عند الحاجة وجعلتهما حقوقًا جبريَّة يوجبها [illegible]

ومن هذه الاساليب ايضاً ربط الدول والتواد بعقد الصلح حالما تتم الغاية السياسيّة من الحرب وبذلك تقصر مدتها ولا يخشى من تولد غايات جديدة تدعو الى اطالتها كما حدث في اكثر الحروب الطويلة التي لم تحمد نيرانها الاّ بابادة فريق من المتحاربين

ومنها تهذيب اخلاق الجيوش وتنظيمهم حتى يصيروا كالآلات بيد قوادهم يديرونهم كيف شاؤوا كما نرى في الجيش الانكليزي والجيش المصري فقد اخبرنا من رآهم في ساحة الحرب مرأى العين وشاركهم في الضرّاء والسرّاء والخطر والظفر انهم كانوا يتربصون في خيامهم ونار العدو تنصبّ عليهم انصاباً فلا يبدون حراكاً ولا يشكون مكروهاً ثم اذا امرهم قائدهم ان يتسلقوا اوعر الجبال خماصاً عطاشاً نسلّوها دبّاً وزحفاً بلا تذمّر ولا شكوى . واذا اوعز اليهم بالتيام واطلاق النار لبثوا في مواقفهم كالاصنام لا تحرك ايديهم الا الى اطلاق البنادق ولا تنظر عيونهم الاّ الى الغرض الذي امامهم . ثم اذا استأمن اليهم العدو عاملوهُ كانفسهم او اثروهُ عليها فيعصبون جروحهُ ويداوون قروحهُ ويطعمونهُ ويسقونهُ طالبين اكبر النتائج باقل الخسائر . بخلاف السودان البرابرة فانهم كانوا يكرّون بلا انتظام ويفرون متى انكسروا كالغنم التي فاجأتها الذئاب واذا وقع في يدهم اسير اذاقوهُ الموت صوتاً

ومنها تعليم الاتواد وتهذيبهم وطبع شرائع الحرب على افئدتهم حتى يجتنبوا كل اسراف ولا يسفكوا دم انسان الاّ اذا لم يروا من سفكهِ مناصاً ولا الى حجزهِ سبيلاً

ومنها نشر الآداب والفضائل بين الناس حتى يعتبر بعضهم بعضاً اخوةً لان علاقات الحب الاخوي بين الناس علاقات اصليّة اساسية راسخة في فطرتهم ولكن اختلاف الاهواء وتضارب الاغراض والمزاحمة على المعاش قد سدلت عليها ستاراً كثيفاً لا يزيلهُ الاّ نشر الآداب والفضائل وتعاضد الدول على كبح جماح الشر وربط المطامع بحدود تضيق سعة فسحتها بحسب استعداد الناس الى ان تتضمّ على نفسها اذ لا يبقى ضمنها شيء . لانهُ اذا أُريد نزع الحروب من الدنيا وجب ان يتعاضى عنها بوسائط كافية لحفظ الحقوق

ثم ان من ينظر الى استعدادات الدول الحربية وتزايدها يوماً عن يوم يهزأ بما قلناهُ من استئصال الحرب وتسلط السلم يوماً ما . ولكن السلم عزيز في نفوس الناس وهم اليوم يطالبون . فكما جمعت ممالك جرمانيا في هذه الايام توحيد صالحها تجمع الممالك كلها تحت لواء الامن والراحة . ولا بد من بقاء شيء من اختلاف بين الشعوب ولو في الاغراض والمشارب ولكن لا يعسر حسم هذا الخلاف بمحكمة العقلاء الذين يتحكمون فيهِ كما حسمت مسئلة الالاباما بين انكلترا واميركا بمحكمة امبراطور برازيل ومسئلة جزائر كارولين بين اسبانيا وجرمانيا بمحكمة الحبر الروماني .

وهناك داعيان آخران يستدعيان نشر السلم في الدنيا ونزع الحروب منها وهما انتشار التجارة وميل الناس الى السفر والتنقل وهما من اشد الدواعي لمقاومة الحروب وايجاب المسالمة

ومن يقابل احوال الحروب الحديثة بالحروب القديمة يرى جليًّا ان الناس جاروا جربًا حديثًا نحو تجنب الدماء وتخفيف وطأة الحروب فان تيمور لنك وحده قتل في حروبه نحو ستة ملايين من الانفس وذبح امام ابواب دهلي في الهند مئة الف اسير. وكانت الحروب الدولية تدوم خمسين سنة بل مئة سنة والحروب الاهلية متواصلة اما الآن فقد اضحت الحروب الاهلية اثرًا بعد عين وقصرت ازمنة الحروب الدولية وقلّ قتلاها كثيرًا وصار الاسرى بأمن من العدوان. فقد اتفقت شرائع الحروب واسباب التمدن على توطيد السلم في الدنيا وحبذا العصر الذي نتمكن فيه من ذلك "فلا ترفع امة على امة سيفًا ولا يتعلمون الحرب في ما بعد"

كتاب سر النجاح

ومشاهير العرب

لولا سهولة النسخ والطبع لناقت اثمان بعض الكتب اثمان الدرّ والجوهر. وايّ شيء اثمن من كتاب يفيدك ويدلّك ويهديك الى ما به خيرك وارتقاء ضميرك وارتقاء شأنك واصلاح حالك بما يروي لك عن اخبار الوف من الناس العظام وما نالوا من المسالك الوعرة في سبيل المجد وكيف ركبوا المراكب الخشنة حتى سادوا وشادوا. وهذا شأن كتاب سرّ النجاح الذي وضعه الفاضل سمياز الانكليزي. فانه لم يلبث ان طُبع باللغة الانكليزية حتى تُرجم الى اكثر لغات اوربا واقبل اهلوها على مطالعته واشتهرت فيهم فوائده حتى ان ملوكهم هادوا مؤلفه بالهدايا النفيسة اعترافًا بفضله وشهدوا له انه من خير الكتب الموضوعة لترقية شأن رعاياهم. ولمّا كان الاستاذ العلّامة الشهير الدكتور فان ديك خيرًا بمنافع هذا الكتاب محبًّا للغة العربية واهلها حريصًا على نفعهم باشهار كل ما تصل اليه يده من الفوائد ينهم انتدب احدنا منذ بضع سنين الى ترجمة كتاب سرّ النجاح هذا الى العربية فترجمه وطُبعت الترجمة في مدينة بيروت. وقد ظهر لنا اثناء ترجمته امرٌ تحقّق لدينا بالاختبار بعد ذلك وهو ان هذا الكتاب لا تعمّ فوائده بين المتكلمين بالعربية ولا يبلغ فيهم تمام الغاية المقصودة منه الّا باربعة امور

الاوّل ان تضاف اليه سير كثيرين من الذين اشتهروا في بلاد المشرق حتى يرى الشرقي الذي يطالعه ان الذين نجحوا بسيرهم وجدهم لم يحصروا في اوربا واميركا بل تبلغ كثيرون منهم في